(ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا [51]) تتنزل هذه الجملة منزلة التعليل للجملتين اللتين قبلها وهما (أفتتخذونه وذريته) إلى قوله (بدلا) فإنهم لما لم يشهدوا خلق السماوات والأرض لم يكونوا شركاء في الخلق بطريق الأولى فلم يكونوا أحقاء بان يعبدوا . وهذا احتجاج على المشركين بما يعترفون به فإنهم يعترفون بأن ا هو المتفرد بخلق السماوات والأرض وخلق الموجودات .

والإشهاد A E : جعل الغير شاهدا أي حاضرا عن كناية هنا وهو خاص إحضار وهو المشاركة في العمل أو الإعانة عليه . ونفي هذا الشهود يستلزم نفي المشاركة في الخلق والإلهية بالفحوى أي بالأولى فإن خلق السماوات كان قبل وجود إبليس وذريته فهو استدلال على انتفاء إلهيتهم بسبق العدم على وجودهم . وكل ما جاز عليه العدم استحال عليه القدم والقدم من لوازم الإلهية . وضمائر الغيبة في قوله (أشهدتم) وقوله (أنفسهم) عائدة إلى المتحدث عنه أي إبليس وذريته كما عاد إليهم الضمير في قوله (وهم لكم عدو) .

ومعنى (أنفسهم) أنفس بعضهم بقرينة استحالة مشاهدة المخلوق خلق نفسه فإطلاق الأنفس هنا نظير إطلاقه في قوله تعالى (فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم) وفي قوله (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أي أنفس بعضكم . فعلى هذا الوجه تتناسق الضمائر ويتقوم المعنى المقصود .

واعلم أن ا تعالى خلق السماوات والأرض قبل أن يخلق لهما سكانهما كما دل عليه قوله (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها) . وكان أهل الجاهلية يعتقدون في الأرض جنا متصرفين فكانوا إذا نزلوا واديا مخوفا قالوا : أعوذ بعزيز هذا الوادي ليكونوا في أمن من ضره .

وقرأ أبو جعفر (ما أشهدناهم) بنون العظمة وقرأ (وما كنت) بفتح التاء على الخطاب والخطاب النبي A وهو خبر مستعمل في النهي .

والمراد (بالمضلين) الشياطين لأنهم أضلوا الناس بإلقاء خواطر الضلالة والفساد في النفوس كما قال تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتومهم إنكم لمشركون) .

وجملة (وما كنت متخذ المضلين عضدا) تذييل لجملة (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض) .

والعدول عن الإضمار بأن يقال : وما كنت متخذهم إلى (المضلين) لإفادة الذم ولأن التذييل ينبغي أن يكون كلاما مستقلا .

والعضد " بفتح العين وضم الضاد المعجمة " في الأفصح و " بالفتح وسكون الضاد " في لغة تميم . وفيه لغات أخرى أضعف . ونسب ابن عطية أن أبا عمرو قراه " بضم العين وضم الضاد " على أنها لغة في عضد وهي رواية هارون عن أبي عمرو وليست مشهورة . وهو : العظم الذي بين المرفق والكتف . وهو يطلق مجازا على المعين على العمل يقال : فلان عضدي واعتضدت به .

والمعنى : لا يليق بالكمال الإلهي أن أتخذ أهل الإضلال أعوانا فأشركهم في تصرفي في الإنشاء فإن ا مفيض الهداية وواهب الدراية فكيف يكون أعوانه مصادر الضلالة أي لا يعين المعين إلا على عمل أمثاله ولا يكون إلا قرينا لأشكاله .

(ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا [52]) عطف على جملة (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فيقدر : واذكر يوم يقول نادوا شركائي أو على جملة (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض) فالتقدير : ولا أشهدت شركاءهم جميعا ولا تنفعهم شركاؤهم يوم الحشر فهو انتقال من إبطال معبودية الشيطان والجن إلى إبطال إلهية جميع الآلهة التي عبدها دهماء المشركين مع بيان ما يعتريهم من الخيبة واليأس يومئذ . وقد سلك في إبطال إلهيتها طريق المذهب الكلامي وهو الاستدلال على انتفاء الماهية بانتفاء لوازمها فإنه إذا انتفى نفعها للذين يعبدونها استلزم ذلك انتفاء إلهيتها وحصل بذلك تشخيص خيبتهم ويأسهم من النجاة